

عمار بلحسن/ مصادر الثقافة دينامية التطور

الدكتورة : وردة لعرب

جامعة الشاذلي بن جديد الطارف

الملخص :

عمار بلحسن من أبرز الباحثين الجزائريين الذين قدموا للمكتبة العربية أبحاثا رصينة في مجالات معرفية مختلفة ، فهو صبي القرية الضيقة الذي طرق أبواب المعرفة الواسعة، وهو عاشق المعرفة الطليقة الهاربة من الاختصاص الفقير، ففي مرحلته القصيرة المنسوجة من الجهاد والمشقة ، والغبطة والأسى و الألم والأمل ، توزع على أجناس معرفية مختلفة ، فهو الأديب والناقد والأستاذ الجامعي و المفكر السوسيولوجي المتطلع إلى تحرير النفوس، وهدم أصول التلقين والاستظهار هذا ويبقى هذا الكاتب من الكتاب المغمورين وأكثرهم تعرضا للإهمال النقدي إذ ظلت الدراسات بعيدة نسيا عن مقارنة أعماله بأشكالها المختلفة مقارنة بما حظي به الأدباء الذين عاصروه من عناية بالغة فكانت هذه المقالة محاولة منا لإخراجه إلى الساحة النقدية لأنه يستحق فهو أول من نشرت له قصة في الصحافة الوطنية .

Abstract

Ammar Belhassen is one of the most prominent Algerian researchers who have provided the Arab Library with several researches in different fields. He is a naïve researcher who knocked on the doors of wide knowledge, and he is in fond of knowledge free from poor competence. In short period of time, he studied various literatures. He is a writer, a critic, a university professor and sociological thinker who is in favour of the destruction of the old immersion methods. Despite that, this writer remains one of the neglected writers and his works were not interested as compared to the great attention given to other contemporary writers. Therefore, this article is an attempt to bring him to the monetary arena because he deserves it as he was to be the first to publish a story in the national press.

مقدمة:

عمار بلحسن من مواليد الثالث عشر فيفري ثلاثة وخمسين تسعمائة وألف بقرية مسيردة في أقصى الغرب الجزائري على الحدود الغربية- مسقط رأس مجموعة من أدباء الجزائر المرموقين -تلقى الأول بالكتاتيب القرآنية، ثم باشر في منطقة مغنية بمدرسة "لبرارك" تعليمه الابتدائي، وبعضامية خارقة نجح في شهادة البكالوريا، التحق بعدها بالجامعة بمدينة وهران، ليتخرج منها حاملا شهادة

الليسانس في علم الاجتماع، نال شهادة الماجستير في التخصص نفسه فرع "العمل" حول موضوع "الايديولوجية الوطنية والرواية الوطنية في الجزائر" دراسة سيسولوجية". عمل بالجامعة نفسها كأستاذ محاضر في علم الاجتماع الثقافي، ثم كمدير للمعهد، كان عضو في المجلس الوطني للثقافة في فترة الأديب الروائي "عبد الحميد بن هدوقة"، وهو عضو عامل في اتحاد الكتاب الجزائريين منذ مؤتمره الأول سنة واحدة وثمانون تسعمائة وألف⁽¹⁾.

بدأ الكتابة في سنوات السبعينات يقول: " لا أعرف كيف بدأت الكتابة ، ولكن أذكر جيدا أنني عندما كنت أدرس بمدرسة المعلمين في تلمسان كنت أحصل على أعلى نقطة في مادة الإنشاء، كما أنني كنت ميالا إلى الانعزال والتأمل ومعجبا بحلقات المدّاحين، وكذلك بقايا حكايا الطفولة الأولى، وجدي الذي كان يقص عليّ قصص الأنبياء . وتدفع تجارب الحب الأولى الإنسان إلى مواجهة الورقة البيضاء والكتابة"⁽²⁾.

كتب أول قصة سنة 1970، نشرت في صفحة "دروب القصة" التي يشرف عليها الطاهر وطار، وقد كانت أول قصة تنشر في الصحافة الوطنية على الإطلاق، استلهم أحداثها من وضعية عائلته الاجتماعية، وبعدها بدأت عناصر الوعي الحياتي والاجتماعي والطفولي تمتزج في كتاباته، وبعد دخوله إلى الجامعة سنة 1973 تعمق الوعي عنده أكثر بضرورة الكتابة. وبعد اكتشافاته أنّ اللغة هي مادة ووسيلة الإبداع والتعبير عن الإحساس، وأنها أساس العمل الفني والنص، بدأ في طرق أشكال جديدة، أشكال يمكن أن تنعت بأنها كتابة سردية شعرية، هذه الأخيرة هي البحث في قضية التعبير عن الطفولة ، وعن الواقع، لكن بمنظورات وأساليب وطرق تتعدى الكتابة الوصفية الآلية البسيطة، وتحاول أن تبحث في أعماق الشخصيات والأحداث والأنماط الموجودة في الواقع⁽³⁾.

كتب قصصا، طرح فيها أفكارا تجاوزت الوجد الفردي إلى الوجد العام ضمن أفق وهم التغيير ، تغيير العلاقات و القيم والرؤى الموجودة بين الناس ، فكتب عن المرأة وعن الحجر وعن القرية وعن

ذاته وعن مشاكل الجنس وعن الحي وعن الشباب وعن طموحاته وعن العلاقات الإنسانية عامة، متعاملا مع التراث الشعبي ليس فقط على مستوى المضمون وإنما أيضا على صعيد حكايا النسوة في القرية وروايات الجدات والشعب بصفة عامة، أين بدأ يشتغل حول اللغة العربية وتطويعها للتعبير عن الحياة اليومية، لأنه كقاص مرتبط بحياة الناس اليومية⁽⁴⁾.

عمار بلحسن ضمير حي، صديق وفي، أخ كريم، كاتب مبدع، أديب ملهم، باحث لامع، جامعي مرموق، باسم الثغر، مشرق المحي، حاضر النكتة، لم يكن يحب المسؤولية التي كانت تركض وراءه، إذ كان تعيينه في مجلس الثقافة -اعتبره- جناية عليه لأنه حرمه من تقديم طلب الانتداب إلى فرنسا من أجل استكمال دراسته العليا، كما أن المسؤولية التي تحملها كمدير لمعهد علم الاجتماع لم تكن مثمرة في حياته، "لم يكن يحب المسؤولية لأنه أديب يحب الكلمات، يعشق ألفاظ اللغة، يحاول استعمالها استعمالا جديدا، ينفخ فيها من روحه، ويمنحها كيانا لم يكن فيها وكأنها ولدت لأول مرة، وكأنه بذلك يريد الإعلان عن ميلاد جديد للغة جديدة"⁽⁵⁾.

باحث ينشد الموضوعية بحسه الريفي المسيردي، يتعصب لكل ما هو نزيه إنصافا للكلمة الموقف، كان له طموح كبير من أجل تصحيح المسار الثقافي في الجزائر وبالأخص تكريس اللغة العربية، فلا يلبث يتحدث عن بؤس الإيديولوجية الجزائرية، إذ لم يكن يعاني فقط أمراض جسده بل كان يعاني أيضا أمراض بؤس الجزائر.

عند سفره إلى الولايات المتحدة الأمريكية عُرض عليه الالتحاق بوحدة بحث نيوجرسي، رفض لأنه يعلم أن الجزائر تحتاج إليه⁽⁶⁾.

كان في أيامه الأخيرة يتحدث فقط عن الفقر الثقافي والفكري الذي تعرفه البلاد وعلى النزاعات التدميرية التي أتت على الأخضر واليابس، كان مريضا لمرض وطنه وكان وطنه مريضا لمرضه.

سيد الحياة رغم عطالة الجسد وقسوة الاحتلال وعنف اللحظات الأخيرة ، كان يسابق الموت بحياة الكلمة وعنفوان النص ونباهة العقل ورشد الرأي ، انطلق من واقع صعب وعاش في حالة ثقافية شرحها بعمق في كتاباته الفكرية والعلمية، بقي يقاومها ويقاوم مرضه، ولم يستسلم إلا باستسلام الروح إلى بارئها ، على اثر مرض عضال (السرطان) دام ما يقارب السنة ، وقف الطب أمامه في الجزائر وفي فرنسا عاجزا، يوم الأحد التاسع والعشرين أوت ثلاثة وتسعين تسعمائة وألف، على السادسة صباحا، التحقت روحه بملكون السماء وهو بين أهله بحي المطمر الشعبي بمدينة مغنية، دفن بها بعد صلاة العصر من اليوم نفسه، تاركا ثلاث أطفال كان يحبهم بجنون (سناء 8 سنوات) (محمد أمين 4 سنوات) و (نسمة 3 سنوات)، و إنتاجا أدبيا وفكريا ضخما بمسيرته الحياتية القصيرة زمنيا والكبيرة من حيث أثرها الذي مازال متواصلا. منها :

المجموعات القصصية الثلاث^(*) ، التي اعتبرت منعرجا جديدا للقصة الجزائرية ، إذ تميز فيها بخروجه عن المؤلف القصصي الوطني منذ أول مجموعة أدبية حرائق البحر 1978 تلتها أصوات 1985 وفوانيس 1991 ، فهو " لا يعتبر من أحد الأدباء المبدعين فحسب ، بل ويعتبر من أكبرهم وأبرزهم و أكثرهم صدقا في كتاباته، وممن يشرفون القصة في بلادنا ومن الذين لازلنا ننتظر منهم الكثير" ⁽⁷⁾ فقد امتاز عن سائر الأدباء الجدد بصلابة الفكر، وعمق الرؤية ، والابتعاد عن المظاهر الاحتفالية ⁽⁸⁾ فمن حيث الرؤية اهتم بلحسن بمسار القوى الوطنية ذات النزعة التقدمية سواء في التاريخ الوطني الجزائري أو في التاريخ القومي المعاصر ، مستخدما أساليب القصة التجريبية ، كأسلوب المقاطع واللغة الشعرية ومزج الحلم بالواقع وأسلوب المشاهد⁽⁹⁾ استطاع بذلك أن يكسر نمطية السرد القصصي الجزائري الذي كان يكتب -حينذاك - مستجيبا لمغريات تيارايديولوجي محدد المعالم ، فقد جاءت قصص مجموعة فوانيس على شكل مناجاة لأحلام وأطياف بعيدة / قريبة ، وأوصافها الشعرية البديعية وقد كانت حرائق البحر تتجاوز الحرفية ، لتسمو الى مستوى شاعري في

التعامل مع الأشياء البسيطة⁽¹⁰⁾. خاصة وهو يفجر في هذه المجموعة أسئلة الانسان البسيط في صراعه اليومي ، يأخذه في ذلك مد الوجد وتجدد الخيبة .

حمل من البداية التميز كمبدع وباحث وكمثقف ، تجاوز الاستناد على بنية الثقافات فتنحصر من سطوة التصنيف بين معرب ومفرنس ، انفتح بحكم اختصاصه السوسيولوجي في العلوم الإنسانية ، كان ممتلكا لحس نقدي منحه جرأة تتجاوز ذاته وإعادة تكيفها ، لأن الحقيقة نسبية وسكنها دوما في حركة التصحيح كما يقول باشلار.

حملت قصصه بلغتها وتيماتا وبناءها ، ما كان يسكنه ، حملت انشغاله المستمر على إبداع ما يرتب للشعاراتية وللمقولات النسقية المجمدة والمنمطة والمحنطة ، كانت المحورية للذات وللمكان واللغة ، بشعرية تكثف الدوال تكثيفا يتعدى معه مرجعية تتسع باستمرار ، مرجعية قراءة مستمرة متواصلة للحياة بتشعباتها من دفتي الكتاب الى المقهى ومن الشارع الى الحقل .

كل هذا الشغف بالإبداع والفن لم يكن حائلا دون أن يسجل حضوره الفكري خاصة في المجال السوسيولوجي أو علم الاجتماع الأدبي والثقافي ، وهو الذي أخذ نصيب الأسد من بحوثه ووقته ، فقد استطاع " أن يقدم كتابات فكرية هامة قائمة على رؤية سوسيولوجية تنهل من فيض العلوم الإنسانية وانجازاتها المعرفية الهائلة ، لقد كانت سوسيولوجيا الثقافة الحقل المعرفي الأثيري في كتابات الباحث"⁽¹¹⁾

فقد سكن بالسؤال عن الثقافة والمثقفين ، إذ بادر في مطلع الثمانينات من القرن الماضي إلى جمع نقاشات المثقفين حول ملف السياسة الثقافية الذي طرح آنذاك في إحدى دورات اللجنة المركزية للحزب الواحد ، وكان الطرح في سياق إحدى دورات اللجنة المركزية للحزب الواحد ، وكان الطرح في

سياق أحداث طفت على السطح بالمطالب الهوياتية والتيار الإسلامي الراديكالي ، عنوان الكتاب الذي أشرف عليه ترجمة وتأليف ب : أنتلجنسيا أم مثقفون .

بلحسن شخصية تختزن طاقات نفسية واجتماعية كبيرة ، محبة للحياة ، تمتلك أفقا مفتوحة لغة ومعيشا ، تعيش تمزقات واختلالات على مستوى الهوية ، لا تتطور الا عبر المواجهات والمجاهات العنيفة ، تحمل رؤية درامية عنيفة للتاريخ والزمن والكينونة ، فقد تنبه مبكرا لمدى أهمية العامل الثقافي ودوره الفعال في صياغة مشروع مجتمعي مفتوح على قيم الحداثة والتسامح والاختلاف بغية الخروج من دهاليز الظلمة وحالة الوهن دون وجود مؤشرات للانفراج أو الحال .

حاول بلحسن تلخيص هذه المآزق في واحد من مخطوطاته الذي صدر مؤخرا عن مؤشرات مديرية الثقافة في ولاية معسكر بعنوان كشف الغمة عن هموم الأمة بالدعوى إلى تثقيف السياسة بدل تسييس الثقافة .

ومن بحوثه أيضا الأدب والايديولوجيا الذي بدى فيه مثقفا عضويا بمفهوم المصطلح ، فقد سبق زمنه بالفصل بين الايديولوجية و الفن ، اهتم فيه بدراسة الأدب داخل المجتمع ، أن تكون الظاهرة الأدبية في ضوء علاقاتها الاجتماعية والثقافية .⁽¹²⁾

كما شارك في لقاءات ثقافية كثيرة بمصر وسوريا والولايات المتحدة الامريكية و المملكة المغربية ، وقد نشرت له دراسات ومقالات كثيرة في العديد من المجلات الثقافية والدوريات العربية مثل مجلة فصول المصرية ، مجلة كتابات معاصرة البيروتية ، ومجلتي المربد وأقلام العراقية.

ونشرت له⁽¹³⁾ :

- الموت وما بعده ، تحليل قصيدة الأخضر بن خيلوف : ماي 1992.

- أسئلة الأدب الوطني في الجزائر: أوت 1992

- نحو سوسيولوجية النص الأدبي : أوت 1992

- الكتابة والمنبر الغائب المجلات الثقافية في الجزائر: جوان 1992.

عمار بلحسن من القامات الكبرى ذات الوعد الشامخ التي قدمت خدمات كثيرة للثقافة العربية والجزائرية ، توقف عند منتصف الطريق بعد أن أجهضه الداء وقضى عليه الردى ، فبفقدته فقدت الجزائر في الظروف الصعبة التي كانت تمر بها رمزا من رموز الثقافة الوطنية ، فوفاته المبكرة تعد خسارة كبيرة للفكر النقدي الجزائري المعاصر فحسب ، بل في الأدب العربي عموما .

تغلب عمار على السرطان لأنه قرر أن يحيا في الموت الى الأبد حين أخذ يقاوم عبر الكتابة ، فترك أثرا لا يمكن لأي سرطان أن يقتله ، وهو تلك الوثيقة الأدبية والفكرية القاسية الموسومة بـ : " يوميات الوجع ، كتابات متورمة ، ليليات الألم ، رؤى جنائزية ، أفاق الأمل " التي صدرت في طبعة محدودة عن جمعية الجاحظية سنة 1995 بإشراف من الأستاذ الطاهر وطار الذي كان مدير تحرير مجلة التبيين و الذي كلفه عمار بلحسن بتولي أمرها وأمرائه الأدبي الذي تركه .

صور فيها الروح في أرقى تجلياتها ، والمرض والبوح يطهرانها بشكل كلي ، فبدت يوميات انسانية النزعة لطيفة التعبير ، لأنها وليدة تجربة كونية ومعانات طويلة ، سعى فيها خائبا الى الجمال الأكمل ، وأمان محطة على عتبة الخلود ، وحرمان يرهن القلب ويشقى العيون ، حتى راح تنتظر ساعة الموت ، غير أن نفسه لم تلبث أن ملت وهمها المزعوم وعافت الحق الذي وصلت إليه ، ورفضت أن تقر هادئة رتيبة - فأشهر قلم الرصاص وفجرها في أخصب صورة وأعذب لحن ، حتى أن قارئها "تنمو لدبه قناعة مطلقة بأن عمار عاش فعلا ومات فعلا ، عرف الحياة عن قرب وعرف الموت عن قرب أيضا ، كل ذرات جسمه وخلاياه ، كل أنفاسه ، كل رمشات عينه ، كل خفقات قلبه ، كل رعشة في كياته ، ذاق الحياة وذاق الموت " (14)

فما أخصب حياة الكاتب عندما تتجول لحظة لحظة إلى تجربة شعورية بشت ترك فيها قلب ولسان وذاكرة لتخط جميعا تجربة هذه الأنا في لوحة نابضة وألوان ناظرة لا تموت لأن أزمات الذات لا تحل إلا بإطلاق المكبوت كي تسم السكينة النفس المتوجعة .

هوامش البحث :

- 1- الطاهر وطار الفقيه في كلمة ، جريدة الشروط الثقافي ، العدد 9 ، 22 سبتمبر ، 1993 ، ص 10.
- 2- عمر الزاوي ، حوار مع عمار بلحسن ، نشرته جريدة الجمهورية ، في الجمهورية الأسبوعية الصادرة بتاريخ 30 أوت الى 6 سبتمبر ، ونظرا لأهميته أعيد نشره بمجلة التبيين تحت عنوان عمار بلحسن . الابداع ، الثقافة والسلطة ، الجاحظية ، العدد 7 ، 1993 . الجزائر ، ص ص 157 ، 158.
- 3- المرجع نفسه ، ص 158.
- 4- المرجع نفسه ، ص 158 .
- 5- عبد الملك مرتاض ، جرحنا لا يندمل ، مريثة لمن كان يصلي الفجرو يقرأ القرآن ، جريدة الشروط الثقافي ، العدد 9 ، 22 سبتمبر ، 1993 ، ص 12.
- 6- بختي بن عودة ، الى عمار في الأبدية المرتجية ، جريدة الشروط الثقافي ، العدد 9 ، 22 سبتمبر ، 1993 ، ص 12 .
- *- في حوار نشر له بمجلة الجاحظية عدد 7 ، تحدث عن مجموعة قصصية رابعة تحمل اسم المرايا ، لكن يبدو أنها لا تزال مخطوطا .
- 7- عمار يزلي ، في تقديمه لمجموعة الأصوات ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1985 ، ص 10.
- 8- شريط أحمد شريط ، الفن القصصي في الأدب الجزائري المعاصر ، الشكل الفني . رسالة ماجستير ، مخطوط ، جامعة عنابة ، الجزائر ، 1986 ، 1987 ، ص 397.
- 9- المرجع نفسه ، ص 397.
- 10- السعيد بوطاجين ، السرد ووهم المرجع ، مقاربات في النص السردي الجزائري الحديث ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط 1 ، 2005 ، ص 151.
- 11- عبد الوهاب شعلان ، إشكالات الكتابة الأدبية في الجزائر من منظور سوسيولوجي ، قراءة في المقاربة النقدية عند عمار بلحسن ، مجلة التبيين ، العدد 28 ، الجاحظية ، 2007 ، ص 23.

12- المرجع نفسه ، ص 26.

13- شريط أحمد شريط وآخرون ، معجم أعلام النقد العربي في القرن العشرين ، منشورات مخير الأدب العام والمقارن ، عنابة ، الجزائر ، ص 29.

14- الطاهر وطار في تقديمه لسوناتة للصديق لو دفيغ فان بهوفن ، تنويعات على السنفونية الخامسة بقلم عمار بلحسن ، مجلة التبيين ، الجاحظية ، العدد 7 ، الجزائر ، 1993 ، ص 179.